تأثير الحروب على المحيط العمراني للمدن في العصر المريني الزياني

الأستاذ الدكتور / عبد العزيز لعرج
أستاذ بمعهد الآثارـ جامعة الجزائر

يشير ابن خلدون أن الحرب واقعة في الخليقة مند برأها الله، ويحدد أسبابها وعواملها بإرادة الانتقام والتعصب، وتبدأ الحرب عادة بسعي طائفة إلى الإنتقام من أخرى، ووقوف هذه الأخرى موقف المدافع ضد الساعية إليها بالحرب، وهو يرى أن ذلك أمر طبيعي في البشر لا تخلو منه أمة ولا جيل... ويواصل أن الإنتقام يأتي إما لغيرة ومنافسة وإما لعدوان وإما لعقيدة وإما غضب للملك وسعي في تمهيده... وهو يرى أخيرا أن الحرب القائمة للغيرة والمنافسة هي الحرب التي تجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة، ويرى أن هذا النوع من الحروب هي حروب بغي وفتنة أي ظلم واعتداء(1).

وإلى هذا النمط من الحروب تنسب الحروب الكثيرة التي نشبت بين بني مرين سلاطين المغرب الأقصى وعاصمتهم فاس وبين بني عبد الوادي سلاطين المغرب الأوسط وعاصمتهم تلمسان، وهم قبائل زناتية لم تكن لهم بالحضارة صلة قبل العصر الموحدي،

نسبهم وموطنهم : وينسب بني مرين إلى قبيلة زناتة البدوية وهي من البربر البتر، ويرجع جدهم الأعلى مرِين في نسبه إلى زكريا بن ورسيك بن زانات بن جانا بن يحي...إلخ تشعب بنو مريـــن كإخوانهم بنو توجين ومصاب عن بني واسين(2) وهم بنو عمومة مع بني عبد الواد وكانوا يعيشون كلهم في

منطقة الزاب حتى دفعتهم الحملات الهلالية خلال القرن 5 هـ/11م إلى صحراء المغرب الأوسط ليستقروا في المنطقة الممتدة بين مصاب وجبل راشد إلى وادي ملوية وفكيك ثم إلى سجلماس[3] ، و لم يكن موطنهم هذا ثابتا لنمط حياتهم البدوية الرعوية القائمة على الترحال بحثا عن موارد الماء والكلأ وتتبعا لهما.

أما بنو عبد الواد فقد عُرفوا بهذا الإسم تغليبا على حدّ تعبير يحي بن خلدون، وأصله عابد الوادي وهم من ولد سجيح ابن واسين ويصل نسبهم إلى ورسيج بن مدغيس الأبتر، بن بر بن قيس عيلان ...الخ. وفي سجيح يلتقي نسب بني عبد الواد بنسب بني عمومتهم بني مرين [4] .

يطلق على بني عبد الواد اسم بنو زيان أيضا، وواضح أن الإسم الأول يتصل بنسب جدهم الأول عبد الواد أو عابد الوادي، أما الإسم الثاني، فيتصل بنسب مؤسس دولة بني عبد الواد، يغمراسن بن زيان، فوالده زيان بن ثابت [5]، ولكن غلب الإسم الأوّل على الثاني، فقيل بنو عبد الواد.

الصراع المريني ـــ الزياني : أسبابه وعوامله:

هناك مجموعة من العوامل المتباينة شكلت جوّ العلاقة بين الزيانيين والمرينيين، كانت هذه العلاقة في معظمها تتسم بروح العداء والعدوانية وتتميز باحتدام الصراع السياسي والعسكري الذي يبلغ أحيانا درجة كبيرة من الخطورة يؤثر سلبا على قوة وامكانيات كل منهما الاقتصادية، ويؤدي إلى ضعف تطورهما الحضاري.

والواقع أن هذا العداء المستفحل بين بني عبد الواد وبني مرين قديم وبالرغم من إنتماء كل منهما إلى أصل واحد وقبيلة واحدة هي زناتة البربرية[6] فإن ذلك لم يقف حائلا دون حدوث الصدام بينهما، وربما كان ذلك مرده لجوار

بعضهما البعض،و أسلوب حياتهما القبلية القائم على التنقل بين مراعي الكلأ ومصادر المياه، والمعابر.

وكان هذا الوسط الجغرافي الذي يمتدون عبره، منحصرا في الـــقفر ما بين نهر ملوية وأرض الزاب من إفريقية ، وكانت تجوبه قبائل بني واسين ومنهم بني مرين بينما تمتد بنو بادين ومنهم بنو عبد الواد في الوسط المنحصر بين نهر ملوية وصا[7]، وبهذا كانوا جيرة في الإقامة وبني العمومة في القرابة .

وكانت هذه الجيرة، مدعاة لجوّ من التنافس على الزعامة والنفوذ من أجل تحقيق سيطرة سياسية واقتصادية في الوسط القبلي والجغرافي الذي يحيون في ظله . وربما بلغ ذلك التنافس والصراع بينهما درجة الصدام العسكري تعبـّـأ فيه الجيوش وتراق الدماء، وكانت الغلبة الدائمة في ذلك الصراع لبني بادين لكثرة شعوبهم وتفوقهم العددي[8] ومنهم بنو عبد الواد ولا شك أن هذا الصراع وتلك الحروب المتواصلة خلّفت آثارا نفسية سيئة شُحنت فيها النفوس حقدا وامتلأت القلوب كراهية كانت تجد متنفسا لها في الحروب العنيفة بينهما على إثر بداية ضعف الدولة الموحدية لتستمر بعد سقوط الموحدين ولا تنتهي إلا بضعفهما معا .

وبالإضافة إلى ذلك هناك عوامل أخرى لا تقل خطورة وشحنا للنفـــوس من سابقتها ونجملها فيما يلي :

1 ـــ التحرش الدائم لبني عبد الواد ببني مرين، واتخاذهم موقفا منهم يقضي بمنعهم من إقامة كيان سياسي لهم على شكل دولة أو إمارة وهو ما يفسر عقد يغمراسن بن زيان تحالفات دائمة ومســـتمرة ضد المرينيين مع القبائل المناوئة لهم

ومع الموحدين وبني الأحمر في الأندلس [9] وذلك لإدراكه أن قيام هذا الكيان السياسي سيؤدي حتما إلى صدام عنيف بينهما يكون بنو مرين فيه أكثر قوة، وهو ما يؤدي إلى تهديد الزيانيين في وجودهم كدولة وككيان سياسي.

2 ــ وقوف الزيانيين حجر عثرة في وجه الطموح المريني على تحقيق مشروع إعادة توحيد المغرب الإسلامي تحت رايتهم مــثلما كان عليه الحال أيام الموحدين ، وذلك باعتبارهم الورثة الشرعيين لقوة الدولة الموحدية ، وسيجد هذا المشروع طريقه إلى الواقع بعد قيام الدولة المرينية وخاصة في عهد أبي الحسن (732- 749هـــ / 1331- 1348م) وابنه أبي عنان فارس (749 - 759هـــ / 1348 - 1357م) .

3 ــ إحتكار الدولة الزيانية للطرق التجارية بفضل الموقع الاستراتيجي لمدينة تلمسان ، والذي تتربع فيه المدينة في نقطة عبور عدة طرق منها طريق جنوبي يمتد من تونس إلى مدينة فاس عبر تلمسان فسجلماسة ، وذلك مرورا ببسكرة وتيهرت وهناك طريق ثان يمتد من الشمال إلى الجنوب انطلاقا من موانيء المغرب الأوسط أهمها وهران وهنين مرورا بتلمسان ــ سجلماسة وغيرها وذلك لنقل ثروة إفريقيا جنوبا من الذهب والعاج عبر الصحراء . وفضلا عن ذلك هناك فروع أخرى لطرق تمتد من الشرق إلى الغرب أو العكس مرورا بتلمسان ففاس ومنها إلى سجلماسة حيث تتفرع منه طرق أخرى . ولا شك أن هذا الموقع، كان وراء قوة الدولة الزيانية وإمكانيتها المالية والاقتصادية، كما أنه كان أحد الأسباب القوية في المحاولات الدائمة للمرينيين في احتلال تلمسان والاستيلاء على قدراتها التجارية لكونها ملتقى الطرق ومقصد تجار الآفاق [10] .

4 - كون تلمسان مفتاح المغرب الأوسط، ومن ملك المفتاح أمكنه امتلاك البلاد كلها، وامتلاك المغرب الأوسط يعني امتلاك المغرب الأدنى بكامله وبذلك يتحقق المشروع المريني في توحيد المغرب تحت رايتهم (11)

5 - موقع المغرب الأقصى الذي يحده المحيط الأطلسي غربا ، والصحراء جنوبا، والبحر المتوسط والأندلس شمالا، وكانت المقاطعات والمناطق الإسلامية فيه تسقط الواحدة تلو الأخرى في يد المسيحيين الإسبان بحيث يمكن للمتطلع إلى الأحداث فيه أن يدرك أن سقوط آخر معقل للمسلمين في الأندلس وشيك، وأمام هذا كله لم يكن للدولة المرينية من حيلة في سبيل توسعها إلا الناحية الشرقية حيث الدولة الزيانية وتلمسانها .

كيف كانت الحرب الزيانية المرينية تؤثر على المحيط العمراني للمدن :

اتخذت هذه الحرب طابع الفعل ورد الفعل أو طابع الانتقام، وهي ظاهرة مارستها الدولتان كل منها ضد الأخرى ، ولكن يمكن القول أن بني مرين كانوا دوما المبتدئين بالعدوان ، لما كانوا يحملونه من مشاريع تقوم على قناعتهم بأنهم الورثة الحقيقيين للمشروع الموحدي في إعادة بلاد المغرب والأندلس إلى وحدتها تحت رايتهم، وذلك يعني إزالة الدولة الزيانية من الوجود ، وكان بنو عبد الواد يدركون هذه الحقيقة لدى جيرانهم، مما دفعهم إلى التشبث بوجودهم والدفاع عن أنفسهم، والعمل الدائم على إفشال مشاريع أعدائهم المرينيين بالاستعداد الدائم للدفاع والمقاومة بل والهجوم عندما تسنح الفرص بانشغال المرينيين بأنفسهم وبلاطهم واسترجاع الأمن والاستقرار إلى ربوع مملكتهم بسبب فتن الأسرة الحاكمة والصراع على الحكم وثورة الأمراء وشخصيات الدولة .(12)

ومن جهة أخرى لم يكن الحفصيون من القوة التي يهددون بها أركان الدولة الزيانية، بل كان بنو عبد الواد في وضع الهجوم الدائم عليهم، وكان

المشروع الزياني يقوم على التوسع شرقا على حساب الحفصيين في بجاية تنفيذا لوصية يغمراسن لأبنائه بالتوسع شرقا، لذلك تعرضوا لكثير من الهجمات الزيانية الذين بنوا المدن العسكرية والقلاع والحصون وشحنوها بالجند والسلاح وآلات الحرب والأقوات لإدامة الحصار والخناق على بجاية وقسنطينة، حيث استولوا عليهما أكثر من مرة بل وهددوا في مرات أخرى تونس نفسها.[13]

الصور المختلفة لأثر الحروب على المحيط العمراني للمدن:

وإذا ما قمنا بعملية تشخيص أثر الحروب على المحيط العمراني للمدن في الصراع بين المرينيين والزيانيين تبينت لنا الأوضاع والأحوال التالية :

إن الصراع المريني الزياني بدأ قبل استيلاء المرينيين على مراكش وسقوط الدولة الموحدية سنة 669هـ/1270م، ولكنه لم يتخذ الصورة الأشد عنفا إلا بعد ذلك.

وقد اتخذت الحرب صور عديدة من الهجوم والدفاع ، ونحن لا يهمنا من تلك الصور إلا ما تعلق بأثرها على المحيط العمراني للمدن :

ففي حدود سنة670هـ/1271م حدثت معركة وادي إيسلي بالقرب من وجدة : بين المرينيين والزيانيين التي كانت آنذاك تابعة للزيانيين، ويصف صاحب كتاب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية هذه المعركة على الوجه التالي:

«واشتد القتال بينهما وعظمت الأهوال فرأى يغمراسن ما لا طاقة له به، ولا سبيل له بلقائه، فقد قتل ولده فارس فـــفر منهزما جريحا في شرذمة قليلة من عشيرته وقرابته وانحصر بتلمسان، فارتحل أمير المسلمين أبو يوسف من الغد في أثره، فوصل مدينة وجدة فوقف عليها حتى هدمت وعفى رسمها وجعل **عاليها سافلها** و لم يبق لها رسما وتركها **قاعا صفصفا** وارتحل إلى تلمسان فترل

بظاهرها وأدار عساكره **بأسوارها وشرع في قتالها**... ووصل إليه وهو محاصر تلمسان أمير بني تــجين صاحب بلاد ونشريس أبو زيان محمد بن عبد القوي التجيني في جيش كثيف في قبائل تــجين ... فاشتد الحصار على يغمراسن... وضيقت قبائل تجين بتلمسان لأخذ **ثأرهم** من أميرها : **فقطعوا الثمار ونسفوا الآبار، وخربوا الربوع ، وأفسدوا الزرع** ولم يدعوا بتلك الجهات قوت يوم...) (14).

لم تكن الحرب تقتصر على القتال الفردي، وإنما كانت تتجاوز ذلك إلى التدمير المتعمد والإفساد المقصود للعمران والعمارة في المدن والقرى التي يتم حصارها والهجوم عليها، مثلما حدث لمدينة وجدة الزيانية التي عبر على ما أصابها صاحب الدخير السَّنية بأنها هدمت وجُعل عاليها سافلها حتى لم يبق لها أثرا.

وإذا انتقلنا إلى مدينة سجلماسة، سنة 672-673هـ/1273ـ1274م كانت صورة التدمير أكثر بشاعة عندما حاول المرينيون استرجاع المدينة من بني عبد الواد.

وكانت مدينة سجلماسة بوابة الصحراء إلى السودان الغربي حيث مصادر الذهب ومناجمه ،كما كانت إحدى المحطات التجارية الكبرى التي استقطبت أعدادا هائلة من القوافل والسلع والمواد التجارية والمبادلات.

وكانت من أثرى مدن مشارف الصحراء، ومركزا من مراكز ضرب السكة الذهبية، ولذلك كان كل متغلب على المنطقة يلجأ إلى الاستيلاء عليها وضمها إلى ممتلكاته لما يلحق لخزائنه من ورائها من أموال كثيرة.

وهو ما أدى إلى اشتداد الصراع بين الموحدين والمرينيين والزيانيين على امتلاكها بكل السبل حتى قبل سقوط الدولة الموحدية، واستمر ذلك الصراع

بين المرينيين والزيانيين بصفة خاصة بعد سقوط الموحدين، فتارة تدخل في حوزة الزيانيين وتارة أخرى يستولي عليها المرينيون ...وهكذا

وكان قد استولى عليها الأمير المريني يحي بن عبدالحق سنة 655هـ/1266م من يد الموحدين الضعاف، وهو في خضم تأسيس دولة المرينيين لما توفره له من أموال يستعين بها على ذلك، فعين عليها حاكما وحامية وجابيا للأموال لأهميتها الإقتصادية.

وفي 658هـ/1259م استقل بها قائد الحامية المريني أبي يحي القطراني، ولكن استبداده ألب عليه أهل البلد فقتلوه، وعادت المدينة إلى حضيرة الدولة الموحدية تحت حكم الخليفة المرتضى.

وفي سنة 660هـ/1261م تفرغ لها السلطان المريني أبو يوسف بن يعقوب « ... فنصب عليها آلات الحصار فأحرقها وامتنعت عليه فتركها...»

وفي حدود سنة 662هـ /1263م ارتأى أهل سجلماسة أن مصالحهم تقتضي الدخول تحت طاعة يغمراسن بن زيان فانقلبوا إليه ودعوا له وخاطبوه، فملكها وعين عليها واليا من قبله فضبطها وأسرى النظام فيها وأنزل إبنه الأمير يحيى لإقامة الرسم الملوكي والجباية، وكان المرينيون تحت حكم أبي يوسف خلال تحول سجلماسة بين الموحدين والزيانيين يعيشون وضعا سياسيا وعسكريا قلقا: صراع بين أمراء البيت المريني، وصراع آخر بينهم وبين الموحدين، أو بينهم وبين بني عبد الواد، وعندما استقرت أوضاعهم واستتب الأمن في بلاطهم وبلادهم سعوا إلى امتلاك مدينة سجلماسة للمرة الثانية، وكان ذلك سنة 672هـ / 1273م وفي ذلك يقول ابن خلدون: « ... ولما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وانتظم أمصاره ومعاقله في طاعته وغلب بني عبد المؤمن على دار خلافتهم ومحا رسمهم ... سما أمله إلى بلاد القبلة فوجه عزمه إلى انتزاع

سجلماسة من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها وإزالة دعوته فيها عن دعوتهم، فنهض إليها في العسكر ... ونصب عليها **آلات** الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود، وبطبيعة غريبة تُردُّ الأفعال إلى قدرة باريها ، فأقام عليها حولا يغاديها القتال ويراوحها ، إلى أن سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من أسارها بإلحاح الحجارة من المجانيق عليها ، فدخلوها من تلك الفرجة في صفر من سنة 673هـ /1271 م[15]

ويشر إلى نفس الحادثة بن أبي زرع، بقوله أن أبا يوسف قبل عبوره إلى الأندلس استخلص مدينة سجلماسة من يد الزيانيين بعد أن ظلت تحت حكمهم حوالي عشر سنوات مستعملا في ذلك أسلحة جديدة دخل فيها البارود يسميها ابن أبي زرع الرعادات وهي نفس التسمية عند ابن خلدون، وكان سقوط المدينة خسارة كبيرة للزيانيين من الناحية الإقتصادية والمالية التي انضافت للمرينيين، وكان ذلك سنة 673هـ/ 1274م [16] ..

ويبدو أن العصر المريني شهد تطورا كبيرا في مجال السلاح وآلات الحرب، وخاصة الطريقة الجديدة في استخدام البارود في كتل مستديرة من الحديد تنبعث بقوة الدفع من البارود باستخدام آلة هي هندام النفط القاذف من خزانة أمام النار الموقدة في البارود هي أشبه بالمدافع في العصر العثماني

ففي عهد السلطان أبي يوسف نفسه، غزا العاصمة الزيانية تلمسان أكثر من ست مرات آخرها 698هـ/ 1298م تعرض عمران تلمسان فيها إلى كثير من المحن جراء الحروب الدائرة بين الجارتين العدوتين أو الأخوة الأعداء مثلما يقال، فقد تعرضت المدينة وعمرانها إلى كثير من التهديم والتخريب خلال الحصار الأول من سنة 698هـ/1298م الذي دام حوالي ستة عشر يوما عاث

فيها أبـــو يعقوب بالمحيط العمراني للمدن والقرى القريبة والبعيدة عن تلمسان متبعا سياسة الأرض المحروقة : من انتساف الآثار، وتخريب العمران وإفـــساد الزرع، وتحطيم القرى والسطو على الأموال ، ولكن المدينة استعصت عليه وفشل في اقتحامها، فعاد أدراجه [17] إلى فاس .

وعاد في نفس السنة 698هـ/1298م إلى تلمسان ليحاصرها الحصار الطويل الذي ضربه حولها ، ولم يرفعه إلا بعد ما يزيد عن ثماني سنوات بمقتل السلطان نفسه في فراشه على يد أحد خدمه.

نزل أبو يوسف بمجشر بن الصقيل إلى الغرب من تلمسان، وبنى فيها مدينته المنصورة تيمنا بالنصر وعزم على عدم رفع الحصار إلا بعد سقوط المدينة الزيانية، وباشر بقتال المدينة المحاصرة وضربها بالمنجنيقات وأقواس الزيار، وقوس الزيار قوس بعيد المرمى، عظيم الهيكل، اخترعها له الصناع والمهندسون تقربا منهم إليه، وكانت من الكبر والثقل بحيث لايقوى على حملها أقل من أحد عشر بغلا [18]، يشير التنسي إلى انشغال أبي حمو موسى الأول بعد رفع الحصار بإصلاح ما تثلم من تلمسان وبناء الأسوار والستائر التي تعرضت للضرر من جراء ضربات المجانيقات وأقواس الزيار المرينية [19]:

بعد وفاة أبي يعقوب المريني مقتولا من أحد خدمه بقصره وهو نائم في قيلولته، وثب على الحكم حفيده أبو ثابت عامر بن عبد الله ، وخشي من اضطراب أحوال المغرب فاستشار خاصته في ذلك، فأشاروا عليه بمصالحة الزيانيين والعودة إلى فاس الذي كان قد سار إليها حاكم سبتة عثمان بن علي بن أبي العلا، فصالح أبو ثابت أبا زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن، برد إليه جميع ما أخذه منه جده أبي يوسف ، إلا المنصورة أو تلمسان الجديدة مثلما كانوا يسمونها، فإنه اشترط عليه عدم دخولها وحمايتها وإصلاح وترميم ما فسد

منها، وعدم الــتعرض لمن يريد سكناها من أهل المغرب من المرينيين [20]

وعن تخريب مدينة المنصورة المرينية على يد بني عبد الواد يذكر السلاوي « أن المنصورة ...استبحرت في العمران... إلى أن خربها آل يغمراسن عند مهلك السلطان يوسف وارتحال جيوشه عنها.[21]

وفي موضع آخر يواصل السلاوي: أن أبا الحسن عندما نزل في مدينة عمه يوسف بن يعقوب المنصورة التي اختطها في الحصار الطويل، فوجد بنو عبد الواد قد خربوها [22]

و لم يكن تهديم مدينة المنصورة من فعل بني عبد الواد فقط، ولكننا نلاحظ أن بني مرين أنفسهم ساهموا في ذلك التخريب في فترات مختلفة من نزولهم بتلمسان ، فقد أعادوا استخدام الأعمدة المرمرية للمدينة ولقصر السلطان بالقصبة في أعمال إنشائية لهم منها برواق ضريح سيدي أبي مدين وجامع سيدي الحلوي الذي شيده الساطان أبي عنان فارس [23] فيما بعد.

وفي سنة 714هـ/1314م قام السلطان أبو سعيد عثمان المريني بغزو تلمسان، وكان سبب ذلك أن جماعة من بني مرين خرجوا على السلطان، منهم عبد الحق بن عثمان وكبير بني عسكر من بني عمومة المرينيين، واستولوا على مدينة تازى، وكانت من المسالك التجارية الهامة للدولة المرينية نحو الجنوب، واتصل الثوار بالسلطان الزياني أبي حمو الأول 710-719هـ/1310ـ1319م يطلبون المساعدة، فاستقبلهم بود كبير، وفتح لهم باب بلاده وقصره بعد فشل ثورتهم، فاغتاظ البلاط المريني لذلك، وأصابته غصة، فقرر مهاجمة تلمسان ومعاقبة أبي حمو ، فدخل بلاد بني عبد الواد « ... **فاكتسح نواحيها واصطلم نعمها ...ووصل إلى تلمسان فنزل بالملعب من ساحتها ...وغلب على معاقلها وسائر ضواحيها فحطمها حطما ونسف جهاتها نسفا..)** [24].

وفي سنة 732هـ/1331م : عندما استوثق أبو الحسن المريني من انصياع أخيه أبي علي له، وهو عامل على سجلماسة، تحول لمهاجمة تلمسان بالتحالف مع السلطان الحفصي أبي يحي في بجاية، فترل أبو الحسن في منطقة تاسالة الواقعة اليوم بين مدينة عين تيموشنت ومدينة تلمسان، مرسلا قوة عسكرية بحرية برية إلى صهره أبي يحي في بجاية ينطلق منها للقائه، حيث عسكر بتاسالة ليواصلا الطريق معا لضرب تلمسان واحتلالها، ونهض أبو يحي بمن معه من المرينيين، فأحاطوا بقلعة وحصون الثغر الزياني بتيكلات، يذكر ابن خلدون هذه الحادثة كالتالي :» ... **ونهض أبو يحي بمن معه من الجيش المريني إلى تيكلات ثغر بني عبد الواد المجمرة بها الكتائب لحصار بجاية فأناخ عليها بعساكره من الموحدين والعرب والبربر وسائر الحشود فخربوا عمرانها وانتهبوا ما كان من الأقوات مختزنا بها...وأصرعوا بالأرض، فنسفوها نسفا وذروها قاعا صفصفا...**» [25].

وسار أبو الحسن سيرة والده أبي سعيد في حصاره لتلمسان وفتحه لها، فترل بمدينة المنصورة، وأوعز إلى جنده بهدم مدينة وجدة وتخريب أسوارها... وكانت المنصورة التي اختطها عمه أبو يوسف قد لحق بها الخراب على يد بني عبد الواد ، فشرع في إعادة بنائها وفي ذلك يقول ابن خلدون :»... **واختط السلطان بقرب تلمسان البلد الجديد لسكناه... وأدار على البلد المخروب سياجا من السور ونطاقا من الخندق ونصب المجانيق والآلات من وراء خندقه ... وقربت المجانيق إلى رجمها ودكها فنالت من ذلك فوق الغاية ...**» [26].

حيث رميت المدينة بالمنجنيقات وأقواس الزيار، وهذا نص السلاوي يصف أثر المنجنيقات في هدم عمران المدينة « ... **ورتب السلطان المجانيق لرجمها وأحكم عملها لدكها فنالت من ذلك فوق الغاية، وعظم أثرها في القصور العظيمة والقباب الرفيعة التي تأنق أبو تاشفين في تشييدها...**» [27].

غزا السلطان أبي عنان فارس تونس وقسنطينة واستولى عليهما، وقام مثل والده بإلغاء ضريبة الخفارة التي كانت القبائل العربية من رياح تستخلصها من الناس برضى الخفصيين، وطلب منهم الرهن من أولادهم تأمينا لطاعتهم له، فرفضوا ذلك وعصوا الأمر وثاروا عليه، فحاربهم فالتفوا حول أميرهم يعقوب بن علي ولحقوا به في الزاب، فتبعهم أبي عنان فتفرقوا في الصحراء الواسعة فقام بتخريب حصونهم الواقعة بمنطقة الزاب(28).

قام أبوحمو موسى الثاني بقصر ونزمار بن عريف السويدي من قبيلة سويد : زعيمها ومقدمها وهو من موالي المرينيين، قام بتهديم القصر عن آخره، فاغتاظ أبي العباس المريني لذلك فغزا تلمسان في جيوش جرارة، فخرج أبي حــمو موسى الثاني منها فدخلها أبو العباس سنة 785هــ / 1383م واستقر بها أياما ثم هدم أسوارها وقصور السلطان الزياني بها بطلب من ونزمار السويدي نظير ما فعله أبي حمو بقصر ونزمار بن عريف بحصن تازورت وقصر مرادة (29).

وفي عهد السلطان أبي سالم قبل ذلك سنة 761هــ/1359م هاجم تلمسان واستولى عليها فأخلاها السلطان أبي حمو موسى الثاني، واتجه إلى اراضي بني مرين في أكرسيف ووطاط وبلاد ملوية، فحطموا زروعها وانتسفوا بركتها وخربوا عمرانها، فأجــفل أبو سالم عن تلمسان وخرج منها عائدا إلى فاس (30).

أما في عهد السلطان أبي العباس بن أبي سالم: فقد وقعت ثورة عليه قام بها عبدالرحمن بن أبي يفلوسن بمراكش ونواحيها، فانشغل بها السلطان أبي العباس وسار إلى مراكش لفضها، فاغتنم الفرصة السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني، فهاجم الممتلكات المرينية في جموع من القبائل المناصرة له مثل عرب أولاد حسين وعرب المعقل، فدخلوا أحواز مكناسة وعاثوا فيها، ثم غزوا مدينة تازا

فحاصروها وخربوا قصر الملك بها ومسجده بقصر تازروت، وعندما سمع أبي حمو موسى الثاني بانهزام **عبد الرحمن بن يفلوسن عاد إلى عاصمته.**

هذه مجموعة من الصور لتأثير الحروب القديمة في المحيط العمراني والمعماري للمدن والقرى والأمصار، وهي صور تبين أن بيئة الإنسان ومحيطه كانت معرضة دوما إلى الإنتهاك البشري وبصور مختلفة في المكان والزمان، وأن الحرب كانت أكبر معتدي على هذه البيئة وذلك المحيط.

* * *

الهـــــوامش

(1) عبدالرحمن ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، مج.1، بيروت –لبنان 1983، ص .479-480.

(2) عبد الرحمان ابن خلدون، **نفسه**، مجـــلد 7، ص. 343 .

هناك اختلافات جزئية في نسب بني مرين ، بين عبد الرحمان بن خلدون وغيره من المؤرخين، انظر في ذلك ما يلي : ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط 1999ص 184، وعبارات ابن أبي زرع، مطابقة لـــ :مؤلف مجهول، **الدخيرة السنية في تاريخ الدلة المرينية**، نشره الأستاذ محمد بن شنب، الجزائر 1920،،ص 9-10 . ويعطي ابن الأحمر تفاصيل كثيرة عن هذه البطون، انظر: أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، الرباط 1962 ص .11-12.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون، **العبر**، مجـــ7، ص.122، ابن أبي زرع، **مصدر ســـابق**، ص. 187 .

(4) يحي ابن خلدون، **مصدر سابق**، ج1،ص186، وانظر أيضا هذا النسب مع اختلاف واضح في: أبو عبد الله التنسي، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص 109.

(5) ابن الأحمر، **مصدر سابق**، ص46 ، التنسي، **نفسه، ص** 111 .

(6) عن نسب زناتة الثانية منهم انظر :

عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، مجـ 7، ص 120 - 125 .

(7) انظر فيما سبق عن موطن المرينيين ص3، وعن موطن بني زيان ص 20.

(8) عبد الرحمن ابن خلدون، **نفس المصدر** ، مجلد 7، ص.129.

(9) كانت تحالفات بني عبد الواد موجهة دائما لمواجهة المرينيين ومضياقتهم، ومن بين تلك التحالفات: التحالف الزياني الموحدي بين يغمراسن والخليفة الموحدي السعيد وبينه وبين الخليفة المرتضى : 647 هـ / 1249 م، وبينه وبين أبي دبوس. التحالف بين يغمراسن وابن الأحمر سلطان غرناطة لصرف المرينيين على العبور إلى الأندلس، وأخيرا تحالف يغمراسن مع بني عسكر. انظر في ذلك: عبد الرحمان بن خلدون، **العبر، مجـ** 7، ص 172، 352، 353، 360، 370، 371، 422 .

مـؤلف مجهول ، **الذخيرة السنية**، ص 69، 127، 130، 146، 147

(10) أبو عبيد البكري، **مصدر سابق**، ص76 - 78. A. DHINA, op. cit, p. 155.

(11) عن أهمية تلمسان واعتبارها مفتاح المغرب الأوسط، والمغرب الأوسط مفتاح إفريقية ، يدل عليها ما قاله هارون الرشيد عندما بلغه افتتاح إدريس الأول لمدينة تلمسان [... وبلغه أن ادريس قد فتح مدينة تلمسان وبنى مسجدها، وأنه عازم على غزو إفريقية .. فقلق الرشيد من ذلك ... وقال: « إن الرجل قد فتح تلمسان، وهي باب إفريقية ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار ...»

انظر في ذلك : السلاوي، **مصدر سابق**، ج.1، ص 143 .

(12) السلاوي ، **نفسه**، ج.3 ، ص.110-111، 162 - 169.

(13) عطا الله دهينة، **الجزائر في التاريخ**، ج.3، **العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني**، ص.386 ، 409.

(14) مؤلف مجهول، **مصدر سابق**، ص.149-151.

(15) عبدالرحمن ابن خلدون، **مصدر سابق، مج7، ص**.386-389.

(16) ابـــن أبـــي زرع، **مصــــدر ســبق**، ص.209. وانظـــر أيضـــا/ A.Hadjiet, Op . Cit, P. 106.

(17) عبد الرحمن ابن خلدون، **مصدر سابق**،، مجـــ 7،ص445،يحي بن خلدون، مصدر سابق،جـــ1،ص209 .

(18) عبد الرحمن ابن خلدون، **مصدر سابق** ، مجـــ7، ص 456 .

(19) محمد بن عبد الله التنسي ، **مصدر سابق**،ص.135.

(20) ابن أبي زوع الفاسي ، **مصدر سابق** ،ص.514-515.

(21) السلاوي، **مصدر سابق**،ص.80.

(22) السلاوي، **نفسه**،ج3 ، ص.124.

(23) جورج مارسي، **تلمسان**، ترجمة سعيد دحماني، دار نشر التل، الجزائر2004، ص.65.

(24) عبدالرحمن ابن خلدون، **مصدر سابق**، مج.7، ص 504-505.

(25) عبدالرحمن ابن خلدون ، **المصدر السابق** ، مجـــ7،ص527-528.

(26) عبدالرحمن ابن خلدون ، **المصدر السابق** ، مجـــ7، ص.534-535

(27) السلاوي **مصدر سابق**،ج3 ، 124-125.

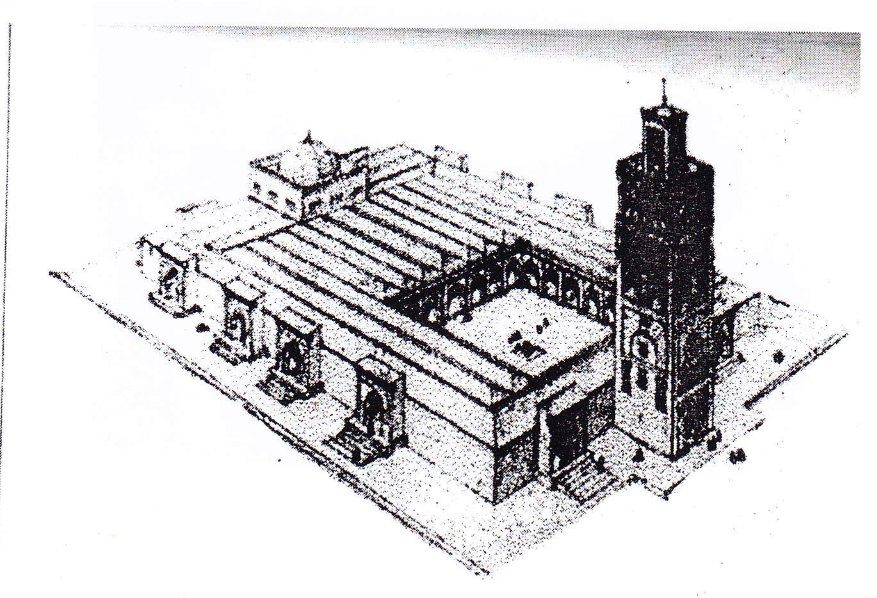
(28) السلاوي، **نفسه**، ج3 ، ص 202.

(29) السلاوي، **نفسه**، ج4،ص.67-68.

(30) عبد الرحمن ابن خلدون، **مصدر سابق** ، مجـ7،ص.293 - 295

* * *





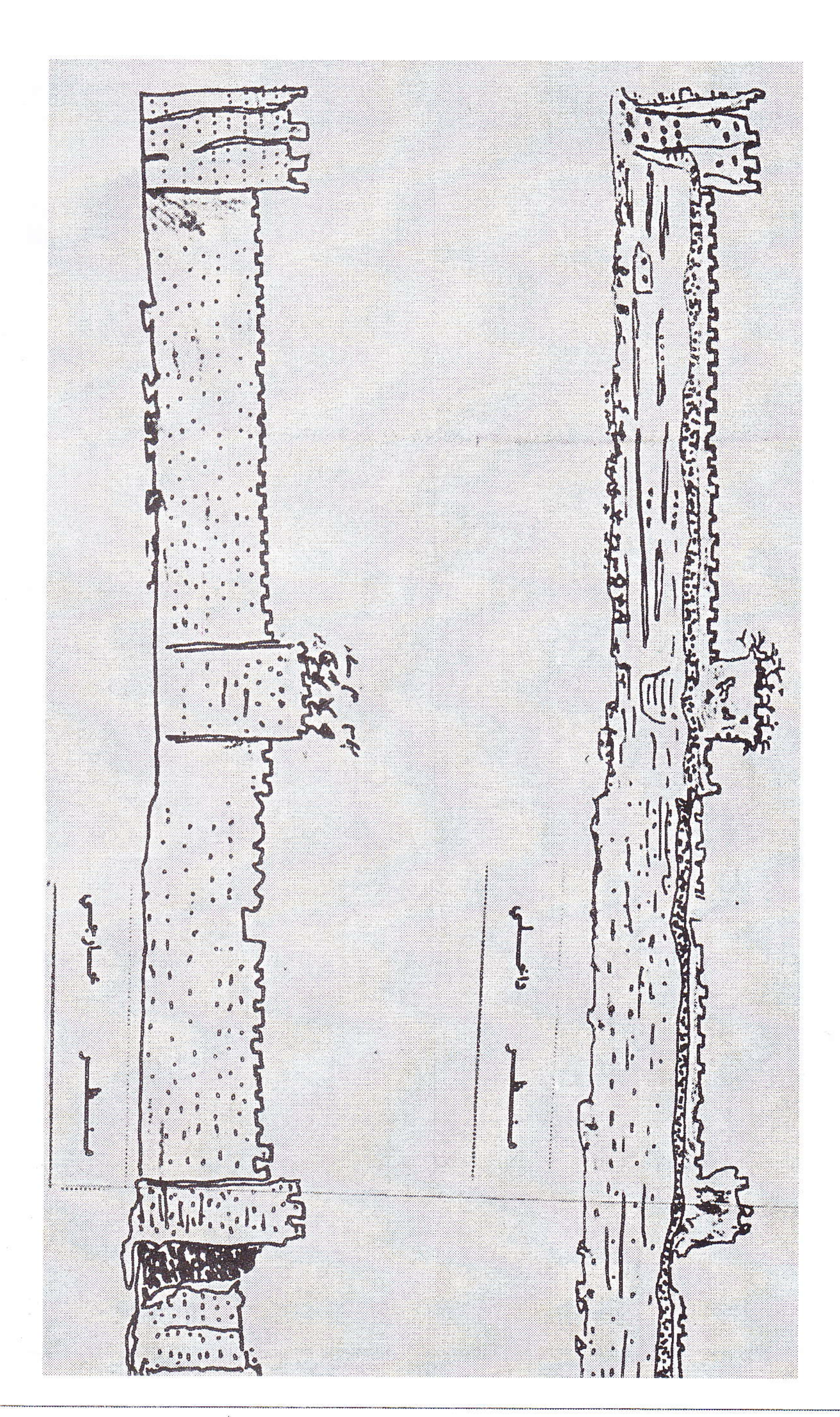
الشكل رقم(15) تلمسان - المنصورة جامع المدينة (إعادة تصور) (عن/ General construction

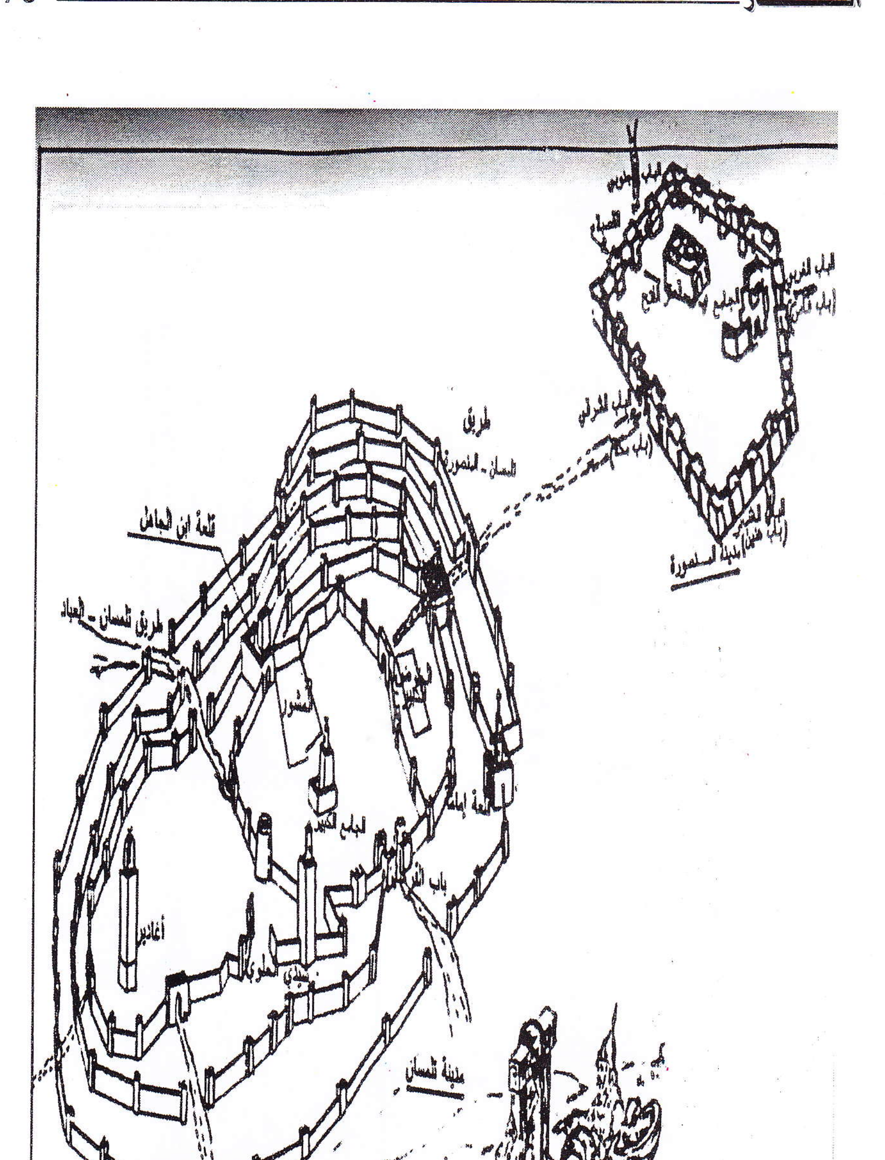


لوحة رقم5: المنصورة - تلمسان. السور الشمالي من الداخل وتظهر تفاصيل التكوين لأحد الأبراج.



لوحة رقم 6: المنصورة - تلمسان: السور الغربي من الخارج بأبراجه البارزة عنه.





شكل رقم (ج) رسم تصوري تخطيطي لتلمسان في القرن 14م